الفصل الثالث

إدوارد سعيد... الوطن في العينين

د. عفاف عبد المعطي

يظهر مشروع إدوارد سعيد الفكري الأساسي وقد تنوعت مشاربه بين السياسة التي اتخذ قراره بأن يعود إلى الكتابة فيها، بعد حرب ١٩٦٧، والنقد الأدبي، وجماليات الفنون . يلخص هذا المشروع ـ باعتباره أستاذًا للأدب المقارن ـ كتاب «الاستشراق»، ١٩٧٨، الذي يُعرفه بأنه طريقة للوصول إلى تلاؤم مع الشرق مبنية على منزلة الشرق الخاصة في التجربة الأوروبية الغربية، حيث لم يكن الشرق لصيقًا بأوروبا فحسب، بل هو موضع أعظم مستعمرات أوروبا، وأغناها، وأقدمها، ومصدر حضارتها، ولغاتها، ومنافسها الثقافي. ثم كتاب «الثقافة والإمبريالية»، الصادر بعده بخمسة عشر عامًا (١٩٩٣)، الذي يقدم أجوبةً لأسئلةٍ أثارها كتاب «الاستشراق»؛ حيث يرفض الفصل الـمُطلق بين الأبيض، وغير الأبيض (أي الغرب ومن سواه)، بوصف هذا الفصل أسطورةً من الأساطير الآثمة للإمبريالية ذاتها، كما لـخَّص إدوارد سعيد وضع عالمنا، بوصفه عالـمًـا من المشاركة، والثقافات المتقاطعة التي تمتلك علاقاتها، ونزعاتها من الثراء ما يمتلكه التاريخ الإنساني نفسه، كما قامت أفكار الكتاب على اكتناه الروابط العميقة، والحيوية بين العرب والغرب، واليابان، والصين، وأفريقيا، هذه العلاقة التي تفوق، في عائدها، وخصوبتها، ما ينفي المقولة المعروفة المتخيَّلة، التي تفترض أنه وضع غربي شرقي، «نقي صاف من الأعراق والحضارات بعضها عن بعض»، فالموقف الفكري في «الثقافة والإمبريالية»، الذي ينطلق منه إدوارد سعيد، ينبع من إيمان عميق بالإنسان، والحرية، وضرورة التواصل، والتفاعل، والإثراء المتبادل بين الثقافات، والمجتمعات، والصراع ضد الاستعلائية، والاستعمار، والهيمنة، والتسلط، والتمركز الغربي، وضد نقائضها من قوميات ضيِّقة، وهويات متشرنقة، وتمركز إسلامي، أو عربي، أو أفريقي. لذا، يشكل إدوارد سعيد ظاهرةً قابلة للتأمل، أكثر منها للتأويل، ويلاحظ المتأمل أن فكر إدوارد ثنائي التركيب، يظل مفتوحًا على العالم، بعيدًا عن أحادية المكان والزمان، ولعل من أبرز ملامح ظاهرة

إدوارد سعيد أننا يجب أن نتساءل بعد مرور أربع سنوات على رحيله؛ ما الذي تبقى من إدوارد سعيد؟ ولماذا تصدر عنه الكتب حتى الآن؟

بداية لقد حول إدوارد سعيد، نفسه، الفردية إلى ذاتٍ جماعية، التحمت بالعالم العربي، وقضاياه، خاصة فلسطين، التي تمثل للجميع وجعًا حقيقيًّا، ثم ارتقت ذات إدوارد سعيد إلى أسمى درجات التمثيل، فلم تعد فلسطين، بحدودها الجغرافية، والتاريخية، هي شغله الشاغل فحسب، بل لقد نجح إدوارد سعيد في وضع فلسطين على خارطة العالم، كما يشهد الجميع، وكذلك مواقفه السياسية، خاصة إبان اختلافه مع القيادة المتنفِّذة في منظمة التحرير الفلسطينية، ومن ثم هجومه على سياساتها (كتاب السيف والقلم ـ حوار مع إدوارد سعيد). لقد أصبح إدوارد سعيد منذ استقالته من المجلس الوطني الفلسطيني عام ١٩٩١ واحدًا من أبرز المناهضين لما يُسمّى بعملية السلام، وظل صوتًا منفردًا للمقاومة، وسط جو استسلامي يائس. ويَعتبر سعيد أن الثقافة من أهم الوسائل لمحاربة الذوبان والإلغاء. ولعل أروع ما في إنتاجه الفكري، هو أن معارف الكون التي أصبح فارسها قد تحولت على يديه إلى أدواتٍ طيِّعة، تُشهد العالم على ما حلّ بفلسطين من ظلم، وقد نحت إدوارد سعيد، بموهبته الخارقة، صورة كونية لفلسطين، بحيث غدت راسخة الأقدام، ثم جعلها تسافر في أرجاء المعمورة، مجسِّدة صورة المظلومين، والمقموعين، والمشردين، والمحرومين، والمنفيين. صورة يمثل الفلسطينيون فيها نموذجًا لضحايا الظلم، والقمع، والتشريد، والحرمان، والنفي. واستطاع إدوارد أن يجعل الصورة تتخطى حدود العِرق، واللغة، والدين، والتاريخ، والجغرافيا. وعندما سأله ديفيد بارساميان (مدير محطة «الراديو البديل» في كولورادو، وصاحب كتب حوارية عدّة مع تشومسكي، وإدوارد سعيد، وطارق علي)، في كتاب «الثقافة والمقاومة»، عن سر حماسه منقطع النظير للفلسطينيين! أجاب بأنه إنما يتحمس للمظلومين، ولو صادف أن رُفع الظلم عن الفلسطينيين، وانتقل إلى اليهود، لتحوّل حماسه لنصرة المظلومين الجدد، أينما كانوا. فهو إذن ينحاز إلى نصرة الحق، ويقف في وجه الظلم، ويسافر في سبيل ذلك إلى حيث يُسلب الحق، ويخيِّم الظلم، بغض النظر عن هوية المظلومين.

كذلك عندما نتأمل اهتمام إدوارد سعيد البالغ بالعالم، أو الكونية، فإننا نجد أن هذا الاهتمام يُشكّل مرتكزًا أساسيًّا في فكره، وحياته، وقد عبّر عنه في المقال الذي كتبه، في أوائل الثمانينيات، تحت عنوان «العالم والنص والناقد»، والذي أضحى، فيما بعد، عنوانًا لكتاب لا يزال النقاد والأدباء والمفكرون يتخذونه نموذجًا يُحتذى به في الفكر، والأدب، والنقد. ويمكن تلخيص فكرة إدوارد سعيد الأساسية في هذا الكتاب بالقول إن النص الأدبي، أو اللغوي، أو الثقافي، لا يولد من فراغ، ولا يعيش في فراغ، ولا يحدوه أو يحدده ظرف مُعيّن، يرتبط بسيرة المؤلف، وبتاريخ مجتمعه، أو بروح العصر، أو حتى بشكلانية اللغة، أو بجماليات الأدب؛ أي أن النص لا يثبُت في مكان، أو زمان، أو شخص مؤلفه، أو سوسيولوجية مجتمعه. وفي الوقت ذاته لا ينكر إدوارد سعيد على المؤلف الأدوات الماهرة التي يستخدمها في بناء النص، بما في ذلك الكفاءة اللغوية المتميِّزة، والجماليات التي تنجم عن هذه الكفاءة في النهاية، وهو لا ينكر، أيضًا، فردية المؤلف، وتميُّزه؛ إلا أن القضية عند إدوارد سعيد تتجاوز بكثير كون اللغة نظامًا يتطلب منا أن نكشف النقاب عنه كما اعتقد البنيويون، ومن قبلهم الشكلانيون، وهي، أيضًا، أوسع مدًى من تبرئة النص من كل ما هو خارج التركيب اللغوي من سيرة، وتاريخ، وسوسيولوجيا، كما أكّد لنا أصحاب النقد الجديد، وهي قضية تتعدى اهتمامات النقد العلمي، أو التطبيقي، الذي يحصر مهمة النقد في استخراج جماليات الأدب.

مـن الجانـي؟

من اللافت أنه لا يزال صدور الكتب عن إدوارد سعيد، وكذلك له، حادثًا، منذ وفاته. آخر ما صدر عنه كتاب «إدوارد سعيد .. رواية للأجيال»، لأستاذ الأدب الإنجليزى الأردني المعروف د. محمد شاهين[1]، مرصعًا بمقولة لمحمد حسنين هيكل، عن سعيد «إنه يبدو بوجهه المليء بمعاناته النبيلة شبيهًا باللوحات العظمى، التي تُجسِّد آلام السيد المسيح».

الفكرة الأساسية في الكتاب تقوم على الرد على كل المحاولات التي دأبت على التنكيل بإدوارد سعيد، والتشكيك في مواقفه السياسية، خاصة بعد ظهور كتابه التأسيسي «الاستشراق»، حيث أصبح إدوارد مستهدفًا، عندما قلب معايير المستشرقين التقليدية، وأسَّس مدرسة فكرية جديدة طوّرت مفهومًا جديدًا للعلاقة بين الشرق والغرب، بعد أن فندت مزاعم المستشرقين، التي كانت في أغلبها امتدادًا للاستعمار نفسه. ولا تغفل الذاكرة المناظرة الشرسة التي تلت ذلك، والتي ضمتها صفحات مجلة «نيويورك ريفيو» الأمريكية المشهورة، بين إدوارد سعيد من جهة، وكبير المستشرقين، برنارد لويس (صاحب كتاب «إنجيل برنابا» المهم)، من جهةٍ أخرى، والتي أدت، في النهاية، إلى بزوغ حجة إدوارد سعيد، وانتشارها في العالم الغربي، ومن ثم العربي، وأفول نجم برنارد، خاصة بعد أن قلب كتاب «الاستشراق» معايير المستشرقين المعروفة، وأسس مدرسة فكرية جديدة، طوّرت مفهومًا جديدًا للعلاقة بين الشرق والغرب، بعد أن فنَّدت مزاعم المستشرقين، التي كانت، في أغلبها، امتدادًا للاستعمار نفسه، منذ أن بات إدوارد سعيد يعيش في أمريكا، وهو يحمل هوية غير رسمية، يشار إليها في العالم الأنجلو - سكسوني، بحروف ثلاثة، تكون كلمة (Wog)، الحرف الأول منها يشير إلى غربي، والثاني شرقي، والثالث إلى جنتلمان، وهي هوية يتحلى بها عشرات الآلاف من المثقفين الشرقيين، الذين يفدون إلى أوروبا، ويحصلون على ثقافة مرموقة، ويظل الحرف الأوسط (Oriental) يدمغ هويتهم، تمييزًا لهم عن الغربي (Western). أما الحرف الأخير، فهو الذي يُكوِّن حلقة الوصل الهشّة في هذه الهوية، ولكن دون أن يتساوى الجنتلمان الغربي الأصلي، مع الجنتلمان الشرقي، الذي يعد طارئًا على الثقافة. و(Wog) مصطلح نحته الاستعمار، ربما للمحافظة على النقاء العرقي الأوروبي، وإبعاد تهمة اللاسامية عن الغرب، وكأن هذه التسمية، أو هذا التصنيف، مصالحة بين العالمين.

عاش إدوارد سعيد في أمريكا، منذ أن وطأت قدماه في المدرسة الثانوية، هوية (Wog)، وهي كما عاشها إدوارد، بطريقته الخاصة المؤلمة، هوية منفى مُركّب، أو منفى في داخل منفى، وقد تحدث عنها، بمرارة، في مناسبات كثيرة، مشيرًا إلى أنه منفي عن هويته العربية الإسلامية، ومنفي، أيضًا، عن هوية اسمه، (إدوارد) الـ(Wog) (يظهر التناقض الواضح)، ومنفي عن الثقافة التي اكتسبها، على مدى السنوات، في أعرق جامعات العالم، والتي لم تؤهله في نظر المجتمع الأمريكي لأن يكون واحدًا من أفراد المجتمع، الذي يدخل الناس هويته أفواجًا. وبقي الأمر على هذا الحال إلى أن قامت حرب عام ١٩٦٧ التي فجّرت داخل إدوارد سعيد طاقات الغضب، والشعور بالغبن، وهنا كانت نقطة التحول في حياته.

الإطار الفلسفي لنزعته الإنسانية

من أهم الأشياء التي يمكن أن تؤدِّى إلى الكاتب هي جمع شتات ما كتب قبل رحيله، وإصداره بعده؛ من ذلك كتاب «الأنسنية والنقد الديمقراطي» (ترجمة فواز طرابلسي - دار الآداب ـ ٢٠٠٦)، والكتاب يحوي ثلاث

محاضرات، ألقاها إدوارد سعيد في جامعة كولومبيا، في يناير/ كانون الثاني ٢٠٠٠، ثم توسعت المحاضرات، فأضاف إليها سعيد محاضرة رابعة، خلال شهري أكتوبر/ تشرين الأول، ونوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠٢، وقد ساعد على ذلك تغير المناخ السياسي العالمي، بعد أحدث ١١ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١، التي أطغت مناخًا سياسيًّا متغيرًا على الولايات المتحدة، وعلى سائر العالم، بنسب متفاوتة، فالحرب ضد الإرهاب والحملة العسكرية على أفغانستان، والغزو الأنجلو ـ أمريكي للعراق، كلها خلقت عالـمًـا من العداوات المتصاعدة، وموقفًا أمريكيًّا أكثر عدوانية تجاه سائر دول العالم، كما أورثت إدوارد سعيد ـ ذو الخلفية الثنائية الثقافية ـ نزاعًا أكثر احتدامًا بين ما يُسمّى «الغرب» و«الإسلام»، وهما عنوانان ـ حسب إدوارد سعيد ـ مضللان، ويصلحان لأغراض تعبئة الأهواء الجمعية، أكثر منهما للفهم الواضح، باستثناء إذا جرى تفكيكهما، تحليليًّا، ونقديًّا. ذلك أن الثقافات تتعايش، وتتفاعل، على نحوٍ مثمرٍ فيما بينها أكثر مما تتقاتل.

وقد اختار إدوارد سعيد تعبير «الأنسنية» للدلالة على المذهب الفكري الذي يقول ـ تبعًا لأفكار النهضة الإيطالية ـ إن الإنسان هو أعلى قيمة، وفقًا لقواعد، في مقابل أن «الإنسانيات» هي دراسة تعنى باللغات، والفنون، والآداب، والتاريخ. في معنًى أكثر حصرًا، فالإنسانيات هي دراسة المؤلفات الكلاسيكية، الإغريقية والرومانية، أما «الإنسانوية» فتُستخدم للدلالة على الميل، أو النزوع إلى الإنسانية، أو ادعائها، خاصة وأن أمريكا ـ بما أنها القوة العظمى الوحيدة المتبقية في العالم ـ تطرح على المفكّر الأنسني (المفكر في مفهوم الأنسنة، كما أشار إليه) تحديات، ومطالب خاصة مختلفة عن تلك التي تطرحها أية أمة أخرى، على أن الواضح ـ مع ذلك ـ أن الولايات المتحدة، بما هي مجتمع يحتوي مهاجرين، ليست مكانًا منسجمًا، وذلك، أيضًا، من خليط الأسباب التي يتعين على المفكّر الأنسني الأمريكي أخذها في الاعتبار.

لقد جمع إدوارد سعيد ـ بذكاء شديد ـ بين دفّتي الكتاب تأملًا مستفيضًا للنزعة الأنسنية القابلة للاستخدام، كممارسة مستديمة، لا مجرد عملية استحواذ، كما تفعل أمريكا بزعامة بوش الابن، كما أنها تفكُّ في ماهية النشاط الأنسني، بديلًا عن تقديم لائحة بالصفات المرغوب توافرها في الملتزم بالحركة الأنسنوية، نظرًا لسلسلة متكاملة من الادعاءات المضادة، تقدمها السياسة الأمريكية باسم النزعة الأنسنية، ومادة الإنسانيات، التي يزعمون النطق بلسانها.

لقد جمع إدوارد سعيد مواد هذا الكتاب، ونقّحها، لكنه لم ير صدوره للنور؛ لأنه كان قد غادرنا، لكن الكتاب صورة متكاملة لرؤية ثاقبة لأبرز الشخصيات الفذَّة في عصرنا، حيث يعبر عن صوت إدوارد سعيد، الأستاذ الجامعي، الذي لا يفاخر إلا بالتعليم مهنة له، والناقد الثاقب، الذي لم يتوان عن قول الحق، في عقر دار الباطل، والمثقف الذي يجهر بالحقيقة، والحق، في وجه السلطة، والناشط السياسي الذي جاهد ـ حتى الرمق الأخير ـ لوضع حلول ووسائل من أجل انتصار قضايا الحرية، والعدالة في سائر العالم.

الوطن مُعادل المنفى

إدوارد سعيد شخصية اصطفائية، متحدية لمعرفتها، ولمعارف الآخر، بحثًا عن «الانعتاق والتحرر من القوالب الجامدة للعائلة، والدين، والقومية، واللغة، أيضًا». قدم في سيرته الذاتية «خارج المكان»[٢] توجهًا فكريًّا يقوم

على عدم الفصل بين الخاص والعام، كأطروحة فكرية شمولية، ترى إلى الكائن في رمته بعيدًا عن تجزئته، أو تجزئة العوامل الثقافية، والسياسية، والاجتماعية، التي أثرت فيه، وساهمت في تكوينه. إن إخراج الذات ومسرحتها mise en scène فعل ملاصق لكتابة السيرة الذاتية، يشير إلى رؤية الذات لذاتها، وللآخر، وللعالم. فما الذي عرضته ذاكرة إدوارد سعيد المعرفية، وذاكرته الشعرية على «مسرح الذاكرة»؟ وضع الكاتب إطارًا برهانيًا للاستدلال cadrage argumantatif، هو التوثيق بين الخاص والعام، وتعاضدهما في تكوين هويته. وقد قصدنا بالإطار، كمصطلح من مصطلحات تحليل الخطاب، إن إبراز أماكن وقيم معينة، واختيار معطيات، وتقديمها إلى القارئ، تشكل جميعها تحضيرًا للبرهنة، وهي أكثر من مجرد وضع عناصر، وتقديمها إلى القارئ، إذ يشكل استخدامها الخطوة الأولى من أجل الإقناع. فلو نظرنا، أولًا، إلى المبررات التي يقدمها الكاتب، والتي دفعته إلى كتابة سيرته، سيتبين لنا أنها مبررات تجمع ما بين السجل الشخصي، والسجل العام. إذ تتطابق سيرته مع محطات/ صدمات من التاريخ، العربي، والدولي، والفردي، كما ذكرنا سابقًا. والربط بين التجربة الفردية microhistoire، والتجربة الجماعية macrohistoire هو في صلب التساؤلات الراهنة للمؤرخين الذين يستخدمون الطرائق المتبعة في الإنثربولوجيا، التي تركز على الفاعل والفرد، وعلى الطريقة التي تنبني بها التجربة، حيث يتم الربط بين التاريخ والذاكرة، بين علاقة الفرد بالجماعة، وبناء الهويات وموقع الفرد فيها. لم يجد بدا إدوارد سعيد من استخدام العمل الميداني الإنثربولوجي في سيرته، الذي يقدم الدلائل على مدى تعرضه إلى عنف التاريخ، خلال المرحلة الاستعمارية ونكبة فلسطين. فلم يخضع الأفراد المتفردين في فرديتهم، وبشكل مباشر، إلى دائرة الجماعة، كما حدث خلال حروب هذا القرن، ونكبة فلسطين، وتفكك الاستعمار، والعولمة. هكذا، يمكننا فهم التلازم بين التاريخ الذاتي والجماعي، الخاص والعام، على أنه إبراز للأنا في التاريخ.

إثر أحداث ١٩٦٧ قرر إدوارد سعيد العودة السياسية إلى العالم العربي، لكن العالم العربي قد تغير في ذلك الوقت، ولم يعُد يمثل عالم طفولته، «التي دمرتها أحداث ١٩٤٨، والثورة المصرية، والاضطرابات الأهلية اللبنانية، التي بدأت عام ١٩٥٨». فيتبين لنا مدى التشابك بين ظروفه الخاصة، والظروف العامة، التي أحاطت عيشه، آنذاك، في المنطقة العربية. ومع وعيه النقدي بارتباطه بثقافتين متناقضتين، إلا أنه رفض تقييد نفسه بتناقضهما، فوضع لسرده السير ذاتي مهمة حياكة الجوامع بينهما: «كنتُ أشعر بوجود هوّة من سوء التفاهم تفصل بين عالمي الاثنيْن، عالم بيئتي الأصلية وعالم تربيتي، فإن مهمة تجسير تلك الهوة إنما تقع عليّ وحدي دون سواي» لقد كانت مهمته مضاعفة: التوثيق بين ثقافتيْن/ عالميْن/ هويتيْن، والتوفيق بين العالم العربي في طفولته، والعالم العربي فيما بعد، خصوصًا وأنه اختار استعادة هويته العربية، بوصفه «عربيًا بالاختيار». ولا يسعنا في هذا التصور إلا اعتبار عودته إلى الطفولة محاولة لإعادة بناء الذات وفق تصورها، وثقافتها المركبة المكتسبة: «أعدت قراءة حياتي المبكرة، بما هي حياة من البحث عن الانعتاق، والتحرر من القوالب الجامدة للعائلة، والدين، والقومية، واللغة، أيضًا، قراءة تعيد إليّ ما كنت أرغب فيه من تكيُّف أفضل، وأكثر تناغمًا، بين ذاتي العربية، وذاتي الأمريكية» وعي «عربي لعبت ثقافته الغربية دورًا هامًّا في استعادته ثقافته العربية، وصولًا إلى فتح تخومهما، واستنهاض حوارهما». يقول: «عربي أدت ثقافته الغربية، ويا لسخرية الأمر، إلى توكيد أصوله العربية، وإن تلك الثقافة إذ تلقي ظلال الشك على الفكرة القائلة بالهوية الأحادية تفتح الآفاق الرحبة أمام الحوار بين الثقافات». هكذا استولد نفسه، من جديد، في خروجه على قيوده الخاصة، والقيود العامة. كما كان تغير حياته، وحياة أهله، وأقربائه، يعود إلى تغير هيئة فلسطين، ومعالمها، تدريجيًا، مع تصاعد

شراسة الاحتلال. «اكتشفت، مجددًا، أن ما كان شبكة من البلدات والقرى عاش فيها أبناء عائلتي الموسعة ذات يوم ـ القدس، وحيفا، وطبريا، والناصرة، وعكا ـ أضحت، الآن، مطارح إسرائيلية، تعيش فيها الأقلية الفلسطينية، تحت السيادة الإسرائيلية، مع حلول ربيع ١٩٤٨، كانت عائلتي الموسعة، كلها، قد أُجليت عن المكان، وعاشت في المنفى، منذ ذلك الحين. على أني، في عام ١٩٩٢، تمكنت، للمرة الأولى منذ مغادرتنا عام ١٩٤٧، من زيارة المنزل الذي تملكه عائلتي في القدس الغربية، والمنزل الذي نشأت فيه أمي في الناصرة، ومنزل خالي في صفد، وإذا هي في زيارتي الثانية (١٩٩٨) يسكنها جميعها ساكنون جدد»[٣].

كما تدعو سيرة إدوارد سعيد إلى تجسيد التقابل بين الخاص والعام في تكوين الهويات الفردية والجماعية. وما توسل الماضي عبر التذكر إلا استدعاءً للعوامل الثقافية/ الاجتماعية/ السياسية، التي كان لها وقع جسيم على حياته، فهو أحس آثارها، ولمدة طويلة جدًا بعد حدوثها، مثل ثقافة الاستعمار وسياساته، واحتلال فلسطين، فالرهانات السياسية، والأخلاقية، والحقوقية لهذه الوقائع تبقى حية جدًا، مثل ردود فعل التيار الإسرائيلي اليميني في أمريكا، بعيد صدور هذه السيرة. لقد انبنت سيرته على مفهوم الغياب، غياب المكان/ الوطن، والحياة/ حياته المهددة بالغياب، بفعل المرض المميت. لذلك سأقلب التساؤل الكلاسيكي من: ماذا تعرفني سيرته عن حياته وحياة الآخرين، إلى ماذا يعرفني هذا الحدث الجلل، وهو خسران الوطن عن سيرته؟ إنه ينطلق من إبراز خطوط التصدع والانكسار في هويته faultline، تلك التي أحدثت اضطرابًا في ماهيته وصيرورته. فيبدأ من اضطراب المكان، الذي أدى إلى اضطرابه اللغوي والثقافي، ليصل بالنتيجة إلى اضطراب هويته. جعل إدوارد سعيد من المكان مفهومًا محوريًا، فهو مقياس الزمن، وقوانين العيش والعلاقة بالآخرين. هكذا يفنِّد إحساس العائلة بالوحدة في القاهرة، بالمقارنة مع عيشهم في فلسطين، حيث غابت الوحدة، وحيث «يلازمنا دائمًا سائر أفراد العشيرة». «كانت فلسطين مكانًا أسلِّم به تسليمًا، بما هو الوطن الذي أنتمي إليه، يعيش فيه أقرباء وأصدقاء، بطمأنينة، لا تحتاج إلى تفكُّر»، ومع غيابه «كعائلة، ازددنا التصاقًا بعضنا ببعض، بعد أن لم يعد من قدس إليها نعود». إن استدعاء زمن الوطن الغائب/ الحاضر، واستذكاره يخضع إلى ارتباطات مكانية، تتحكم بالسرد. فهو لا يشوِّش انتظارنا الدلالي، ولا يهدف إلى أن نشكل نظامًا لتعاقب الأحداث، بل إن الزمن يتوقف عند محطات مكانية، بمحولاتها الزمنية، والنفسية، والسياسية. ففي تقطيعه زمن الحكايات التي يرويها، ورواح هذا الزمن ومجيئه، بين تقدم وتأخر، وتجوال الكاتب في أماكن عديدة (فلسطين، لبنان، القاهرة، أمريكا) قد خلق إيقاعًا طباقيًا مكانيًا وليس زمنيًا. خصوصًا وأن السرد يتوقف عند حيِّز الأزمات الشخصية، ومحطات الانكسار.

يتوقف سعيد عند وصف تغيُّر هوية المكان/ الوطن بعد الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين، فالمنزل العائلي، والحي، وأماكن اللعب فيه تغيرت معالمها «أضحت البورة حديقة عامة، والمنطقة المجاورة للبيت حيًا فخمًا، يسكنه أغنياء اليهود». وهنا من المفيد أن نذكر أن الكاتب يستخدم أسلوب التواتر، والتكرار narration répétitive، فتغير هوية الوطن، وتغير هويته الخاصة مترافقان، ومتكرران، على امتداد السيرة. فهوية بلده تعاني «تبدلًا، لا عودة عنه»، فلقد «أجليت أسرة عمتي، نبيهة، عن القدس على مراحل، بحيث لم يبق منها، مطلع ربيع العام ١٩٤٨، غير ابن عمتي الأكبر، يوسف، وقد هجر بيت الطالبية، عند سقوط الحيّ بأكمله، بيد الهاغاناه». وفي اتباعه أسلوب التواتر والتكرار، أراد سعيد استعادة المكان كحيِّز للمتعة، وقد انقلب إلى حيِّز للقهر، وأرض للانفعالات الخصبة «يغمرني،

الآن، إدراك لهول التفكك الذي عانته عائلتنا وأصدقاؤنا، وقد كنت بالجهد واعيًا له، أنا الشاهد الذي لم يشاهد شيئًا في العام ١٩٤٨. وحين كنت صبيًا في الثانية عشرة والنصف في القاهرة، غالبًا ما كنت ألاحظ أمارات الحزن والحرمان على وجوه، وفي حيوات أناس عرفتهم سابقًا، بما هم أبناء الطبقة الوسطى العاديون في فلسطين (...) وغالبًا ما كانت عمتي نبيهة تتحدث بكآبة، واستفظاع، وهي تصف أهوال أحداث دير ياسين «نقلوا الفتيات عاريات إلى معسكر (هم) على ظهور الشاحنات». ضمت سيرته أمثلة عديدة، تشير إلى ملاحظته التغيرات التي طرأت على أسرته الموسعة، بعد ضياع فلسطين، وهي تغيرات سلبية تنم عن الانتكاس المعنوي والمادي. الآن، ومن مسافة من الأحداث يتنبه إلى قمع التعبير السياسي في بيته، الذي يعود بالدرجة الأولى إلى تغيير المكان/ الوطن، فأي مكانٍ آخر، ومهما كان يجسِّد الهشاشة: «وما يستعصي عليّ تفسيره الآن، هو كيف أتفق أن مسألة فلسطين، وخسارتها الفاجعة، التي هيمنت على حياتنا أجيالًا، وأثرت عمليًا في جميع معارفنا، محدثة تغييرات عميقة في عالمنا، تعرضت لقمع نسبي من قبل والديّ: فلا هي مدار نقاش، ولا تستحق منهما تعليقًا». هكذا، فلسطين في حياتنا تمر كجزء من عملية لا تسييس واسعة النطاق من قِبَل والدَيْن لا يثقان بالسياسة، بل يكرهانها، لشعور بأن وضعهما في مصر على مقدار من الهشاشة لم يكن يسمح لهما بالمشاركة في السياسة، ولا بمجرد النقاش فيها». هكذا يوازي بين غياب الوطن، وتغييب التعبير السياسي، وقمعه، من خلال منظوره إلى هذا الحدث «كان ثمة نشاز خبرناه جميعًا، بوصفنا أجانب في القاهرة، لا نستطيع الاستعانة بوطن لنا». على أننا نستدرك للسؤال: هل إن تغير هوية وطنه، الذي أدى إلى تغير في أنماط تفكيره وعيشه، حيث عاش تجربة الاقتلاع، والنفي، وتجربة الاستعمار، كان دافعًا له لعبور الأمكنة، أي عبور الهويات، ورفض السجن في هوية واحدة؟ يتقاطع هذا الموقف السياسي القمعي الناجم عن فقدان الوطن مع موقف آخر أشد قسوة، يعود إلى عدم حصول والدة الكاتب على وثيقة أمريكية، كما هي حاله وحال أخواته: «لم يكن أحد يتجشم عناء أن يشرح لنا أن وجود أمي الشاذ بيننا، كما تدلّ عليه وثيقة سفر محرجة، إنما هو ناجم عن تجربة اقتلاع جماعية صاعقة». فكلما حاول الكاتب أن ينسى نفسه، أن ينسى هويته، وأن ينخرط في العيش، كلما وجد نفسه حاملًا دلالة أعمق لهويته الفلسطينية، وأكثر تراجيدية، إذ «لعبت فلسطين دورًا أكثر إشكالًا في النزاع النامي ببطء بين أبي وشركائه في العمل: عمتي نبيهة، وأبنائها». ذلك بعد اضطرارهم إلى ترك فلسطين، حيث فرع الشركة، والمجيء إلى القاهرة، «وعندما غادرت القاهرة، عام ١٩٥١، إلى ما اعتبرته منفاي الأمريكي، كانت مجمل العلاقات بين فرعي عائلتنا في القاهرة، والقدس قد أصيبت بصدوع غير قابلة للإصلاح، من الناحية التجارية. فشعرت، إذاك، أن اختفاء فلسطين هو المسؤول عما جرى».

هكذا تتجاور العلاقات العائلية، التي تصدعت حديثًا، مع صدوع فلسطين المستجدة، وفي هذا السياق اضطربت هويته، سواء في القاهرة، أم في أمريكا. فحين ذهب في الصيف إلى أمريكا، وهو لم يتجاوز عامه الثاني عشر، وشارك في التخييم بعيدًا عن أهله، سرعان ما أشعرته تجربته الجديدة بهويته الأجنبية «القلقة والمؤقتة جدًا». ليس ثمة أساليب رحيمة لإعادة صوغ ذاته، مع اضطراب مكان عيشه، وتناسله، إلى أمكنة عديدة، إذ أدى «عدد متزايد جدًا من المغادرات إلى زعزعة أركان حياتي، منذ بداياتها الأولى. وفي نظري أن ما من شيء يميِّز حياتي على نحو أشد إيلامًا ـ والمفارقة أنه هو ذاته ما أتوق إليه توقًا ـ أكثر من تنقلاتي العديدة عبر البلدان، والمدن، والمساكن، واللغات، والبيئات، وهي تنقلات ظلت تحركني خلال تلك السنوات (...) إضافة إلى ذلك الإحساس القويّ، والتكراريّ، والمتوقّع، بالنفي الذي ينتزعك من كل ما هو أليف ومريح....»، فما بقي من فلسطين في ذاكرته هو واقعها المعذب،

فيصور الطبيعة الترحالية التراجيدية للوجود الفلسطيني، وهو يشهد على مأزق الفلسطيني بين التوق إلى كسر الحدود الفيزيائية والثقافية، والشعور بالتهديد بالنفي. فالمكان/ الوطن يفترض حركة حرة باتجاهين: الدخول إليه، والخروج منه. غير أن مكان إدوارد يستبعد حرية الحركة، طالما أن الخارج منه هو، في حقيقة الأمر، مستبعد، ومقصي، ومنفي.

في مذكرات «خارج المكان» يمزج إدوارد سعيد بين التاريخ، وبين الذكريات الشخصية، فنجد امتزاج الذكريات الشخصية، من حيث علاقاته بأهله مثلًا، بمعلميه، بالمدرسة، جنبًا إلى جنب تاريخ فلسطين، القاهرة، لبنان، أمريكا، تلك الأماكن التي عاش فيها إثر ترك عائلته فلسطين. لكنه مرة يشير إلى موقفه السردي على أنه شاهد على الحدث، ومرات أُخرى على أنه ضحية له. وهذا ينطبق على مجمل السيرة، حيث يأخذ الحدث بُعْده الكامل، حين يرفد التاريخ الكبير بالتاريخ الصغير، وحين يدمج الحدث النفسي/ العائلي بالحدث السياسي. على أن وضعية الفاعل في الحدث نتبينها في فعل كتابة السيرة وروايتها من وجهة نظره، ومن موقف المتمرد والغاضب ضد الهيمنة الثقافية، والقهر الإيديولوجي، ومن كونه لا يخضع للسيطرة، فيقدم لنا معنى تحرير نفسه من هيمنة الآخر، والتماهي به: «أخذت أشق طريقي بالنضال، ساعيًا، بنجاح متزايد، إلى التمسك بحساسية خاصة، بل إلى تنميتها، حساسية غرضها مقاومة التسويد والسوس الإيديولوجي الأمريكيين، وقد فعلا فعلهما في العديد من زملائي في الصف». (خارج المكان).

إلى جانب تجربة النفي، عاش إدوارد سعيد تجربة الاستعمار، هو المفكر الذي عمَّق فهمنا للظاهرة الاستعمارية، إذ يعود إلى مرحلة تعليمه في القاهرة، وخصوصًا في «فيكتوريا كولدج»، فلقد اتسمت بالتشويه الكبير، و«بباتولوجيا القوة»، وفقًا لما يؤكده، إذ «كانت النظرة السائدة إلى التلامذة أنهم أعضاء، تمموا دفع اشتراكاتهم في نخبة كولونيالية مزعومة، يجري تعليمها فنونًا إمبريالية بريطانية، قضت نحبها، مع أننا لم نكن ندرك ذلك تمامًا. علمونا عن حياة إنكلترا، وآدابها، وعن النظام الملكي، والبرلمان (...)، وعن عادات واصطلاحات لن نستطيع استخدامها في مصر، أو في أي مكانٍ آخر. ولما كان الانتماء العربي، وتكلم اللغة العربية يعدان بمثابة جنحة يعاقب عليها القانون (...)، فلا عجب أن لا نتلقى، أبدًا، التعليم المناسب عن لغتنا، وتاريخنا، وثقافتنا، وجغرافية بلادنا (...)، ثم إني أدركت في قلبي أن فيكتوريا كولدج قطعت، نهائيًا، الأواصر التي تشدني إلى حياتي السابقة، وأن ادعاء أهلي أني مواطن أمريكي قد تهافت، فقد بتنا ندرك جميعنا أننا دونيون، نواجه قوة كولونيالية جريحة وخطرة، بل وقابلة لأن تؤذينا، ونحن مجبرون على تعلم لغتها، واستيعاب ثقافتها، لكونها هي الثقافة السائدة في مصر». تشير هذه الملاحظات الثاقبة عن النظام التربوي الاستعماري، الذي نشأ عليه صغيرًا، إلى إدوارد سعيد الناقد للحالة الاستعمارية، عبر تجربته الشخصية، فكشف سطوة الثقافة الاستعمارية، وأساليبها التطويعية اللانسانوية، الذي أوقع هويته في مآزق غياب حرية التعبير عن الذات، عن طريق إلغاء إمكانية معرفة الذات. إضافة إلى التباس علاقته باللغة . «فعلى الرغم من أن الإنكليزية أضحت لغتي الأساسية، وحصص اللغة الفرنسية في (فيكتوريا كولدج) ليست أكثر تنويرًا من حصص اللغة العربية، فقد وجدتني في وضع غريب، مفتقرًا إلى أي موقع طبيعي، أو قومي، يحدوني إلى استخدام الفرنسية. وأضحت اللغات الثلاث مسألة حساسة جدًّا بالنسبة إليّ، عند بلوغي الرابعة عشرة. فالعربية محرَّمة، ومن

شأن «الو وغز» والفرنسية لغتهم «هم»، لا لغتي أنا، أما الإنكليزية فمجازة، ولكنني أرفضها؛ لأنها لغة «البريطانيين المكروهين». نجد في هذه الإشارة صدى لدور المثقف الذي ارتآه إدوارد سعيد أن يكون «أداة لبعث الذاكرة المفقودة»، وأن يكون شاهدًا ضد إساءة استخدام التاريخ، ومظالم العصر، التي تصيب المقموعين (خارج المكان). ولن تقف التناقضات عند حد النظام التربوي المدرسي، وتعلم اللغات الأجنبية، واستبعاد اللغة الأم، بل أصابت في الصميم اسمه نفسه، وهو عنوان هويته، والمعلن عنها «إدوارد سعيد»: «هكذا كان يلزمني قرابة خمسين سنة لكي أعتاد على (إدوارد)، وأُخفف من الحرج الذي يسببه لي هذا الاسم الإنكليزي الأخرق، الذي وضع كالنير على عاتق (سعيد)، اسم العائلة العربيّ القحّ». كما لو أن قدر إدوارد سعيد في تسميته العربية والإنكليزية، وقدر فلسطين، التي دعيت زورًا بإسرائيل، يتطابقان.

* * *

هوامش الفصل الثالث:

(١) طبعة المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٦ .

(٢) خارج المكان ـ ترجمة فواز طرابلسي، بيروت، دار الآداب، ٢٠٠٤.

(٣) راجع فعاليات مؤتمر إدوارد سعيد مفارقة الهوية ـ د. نهى بيومي ـ قراءة طباقية لسيرة إدوارد سعيد الذاتية. كلية الآداب بجامعة البحرين، ٢٠٠٣.

* * *